المستضعف

ذكرت بعض الروايات[1] المستضعف كحالة متوسطة بين الإيمان والكفر، والمستضعف هو الذي لا يعرف الحق ولا يعاند أهله، وتُعرّفه الأخبار بأنه الذي لا يعرف اختلاف الناس، ففي صحيحة أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع) قَالَ: "مَنْ عَرَفَ اخْتِلَافَ النَّاسِ فَلَيْسَ بِمُسْتَضْعَفٍ"[2]. وفي خبر عَلِيِّ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى (ع) قَالَ: "سَأَلْتُه عَنِ الضُّعَفَاءِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ: الضَّعِيفُ مَنْ لَمْ تُرْفَعْ إِلَيْه حُجَّةٌ ولَمْ يَعْرِفِ الِاخْتِلَافَ، فَإِذَا عَرَفَ الِاخْتِلَافَ فَلَيْسَ بِمُسْتَضْعَفٍ"[3].

والمستضعف بحسب النصّ القرآني هو المستضعف الديني، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}** [النساء: 97 - 98]. إن هذه الآية قد استثنت المستضعفين من أهل الوعيد الذين يشملهم العذاب الإلهي، وهي قد عرّفت المستضعفين المذكورين فيها بأنّهم الذين **{لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}** [النساء: 98]، والسؤال: ما المقصود بهذا التعبير؟

ذُكر في تفسير ذلك: أنّهم الذين لا يستطيعون حيلةً للهجرة "لفقرهم وعجزهم وقلّة معرفتهم بالطّرق"[(4)]، وقال المحقق الأردبيلي: "واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة، مثل الغنى والقدرة على السفر، وما يتوقف عليه **{ولا يهتدون سبيلاً}** عطف على ما قبله، واستهداء السبيل معرفة الطريق والمسلك بنفسه أو بدليل"[5]، وهذا التفسير يساعد عليه السياق، حيث إن الفقرة المذكورة جاءت بعد حديث الآية عن استنكار الملائكة على المستضعفين عدم الهجرة. ويؤيّد هذا التفسير أيضاً قوله تعالى: {**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**} [النساء: 75]. فإنّ دعاءهم **"ربنا أخرجنا من هذه القرية"** مؤشر على أنّ استضعافهم بسبب عجزهم عن الهجرة.

---

[1] مراجعة كتاب "من هو الآخر الديني؟" المجلد الأول من موسوعة "فقه العلاقة مع الآخر الديني".

[2] **الكافي**، ج 2، ص 405، الحديث 7 و10 من الباب وسندهما صحيح.

[3] **الكافي**، ج 2، ص 406، الحديث 11 من الباب.

(4) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن (القرن السادس هـ)، **جوامع الجامع**، مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، 1418 هـ، ج 1، ص 33؛ والرازي، محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي (ت 606 هـ)، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 3، لا.ت، ج 11، ص 13.

[5] زبدة البيان ص 314.

ولكنْ ورد في الروايات وجه آخر في تفسير قوله تعالى: **{لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}**، وهو تفسير يذهب إلى إعطاء الاستضعاف في الآية معنى الاستضعاف الفكري، ففي الحديث الصحيح عن الإمام الباقر (ع) قال: "سألته عن قول الله عزّ وجل: **{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ}** [النساء: 98]؟ فقال: **"هو الذي لا يستطيع الكفر فيكفر، ولا يهتدي سبيل الإيمان فيؤمن، والصبيان ومَنْ كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان مرفوعٌ عنهم القلم"**[6].

والذي رجحناه في محل آخر أنّ مَرجِع المعنيين إلى معنىً واحدٍ وهو الأساس في الاستثناء، وهذا المعنى هو الذي يربط الاستضعاف بالجانب الثقافيّ والمعرفي، وهو ما ذكرته الروايات؛ وذلك لأنّ الهجرة التي ندّدت الآيات بمن يتخلّف عنها هي المدخل الأساسيّ والسبيل الوحيد في زمن البعثة النبويّة إلى التعرّف على الإسلام والعقائد الحقّة، وإقامة الشعائر والواجبات الدينيّة، والحفاظ على قاعدة إسلامية قوية تحمي الوجود الإسلامي، بينما التخلّف عن الهجرة سيعني الانقطاع عن مصدر المعرفة وبقاء المرء في مستنقع الجهل، ومن هنا جاء تحريم التعرّب بعد الهجرة. وعليه فإنّ القادر على الهجرة، لكنّه مع ذلك لا يهاجر، يُعتبَر مداناً ويستحقّ المؤاخذة ولا يُقبل عُذرُه أو دعواه الاستضعاف، لأنّه بترك الهجرة قد سدّ على نفسه باب المعرفة الدينيّة واختار الكفر على الإيمان والظّلمة على النّور، قال تعالى: **{قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}** [النساء: 97]، أجل، لو كان عاجزاً عن الهجرة لضعفٍ في قدراته الجسديّة أو إمكاناته الماليّة أو ما إلى ذلك فإنّ عجزه هذا، حتّى لو أدّى إلى انسداد باب المعرفة الدينيّة عليه، يمنحه عذراً تقبح معه مؤاخذته، لأنّ الحجّة غير قائمةٍ عليه.

وهكذا اتضح أنّ المستضعف هو حالة وسطى بين الإسلام والكفر، وإذا كانت بعض الروايات ذكرت المستضعف المذهبي كحالة متوسطة بين المؤمن بإمامة أهل البيت (ع) والمنكر لها، فلا مفهوم لها في نفي وجود مستضعف ديني، كما لا يخفى. لأنّ الأساس في الحديث عن المستضعف هو القرآن الكريم، وقد عرفتَ أنّ القرآن ناظر إلى الاستضعاف الديني، ولكنّ الأخبار أضافت المستضعف المذهبي، فيكون لدينا مستضعف مذهبي، وآخر ديني.

على أنّ عدم كفر هذا الصنف وهو المستضعف الديني هو على القاعدة التي بنينا عليها من كون الكفر بمعنى الإنكار جحوداً. وقد تكلمنا في كتاب فقه العلاقة مع الآخر المذهبي عن الاستضعاف بشكل مفصل، وعن المستضعف في النظرة الكلامية وفي النظرة الفقهية، فليراجع.

---

[6] **معاني الأخبار**، ص 201. ونحوها ما في **تفسير القمي**، ج ،1 ص 149. والرواية هي بإسناده عن حماد بن الظبيان عن أبي جعفر عليه السلام قال: "سألت عن المستضعف؟ فقال: **هو الذي لا يستطيع حيلة الكفر فيكفر ولا يهتدي سبيلا إلى الايمان لا يستطيع أن يؤمن ولا يستطيع أن يكفر فهم الصبيان، ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان من رفع عنه القلم**". ورواه الكليني مرسلا، انظر: **الكافي**، ج 2، ص 404.

- من كتاب "من هو الآخر الديني؟" المجلد الأول من موسوعة "فقه العلاقة مع الآخر الديني".
- المؤلف العلامة الشيخ حسين الخشن
- تمّ نشر المقال في 2-9-2024 مـ.